سوق الجنة

«في سوق الجنة من أحب صورة دخل فيها».. ابن عربي
وفي سوق جنتنا، من أحب «تجربة» تجلَّى في صورها المتعددة..

تكتبها هذا الاسبوع: هناء بوحجي

"بدعوتي إلى سوق الجنة، داعبني يا عزيزتي عشق غائر للصحافة لا أعرف إن كان عليّ أن أشفى منه". بهذه العبارة قدمت هناء بوحجي سوق جنتها التي طال انتظارنا لها وطال ترددها فيما تختار لما يستحقه وقت القارئ. لم تنفك هناء خريجة الاقتصاد من عشقها الغائر لصحافة طالما تنقلت بين صفحاتها الاقتصادية. ورغم مغادرتها إياها منذ أقل من عامين إلى وظيفة أخرى أقل غوراً، إلا أن الصحافة لا تزال هي جنة هناء التي لا تريد أن تشفى منها أبداً..

■ باسمة القصاب

بداية .. بصفة الاستعجال

لم أكن قد أكملت عامي الرابع عندما تورطت والدتي بي عندما انتقلت مع والدي للاستقرار في بيت جدي الكبير في البديع، وكانت تعمل مدرسة في وقت لم يكن زمن الخادمات والمربيات قد حان بعد فيه، فرأفت مديرة مدرسة البديع في ذلك الوقت، نسيمة الجشي، بحال والدتي وقبلت أن أجلس بصفة مستمعة في الصف الأول الابتدائي، على أن أعيد الصف حتى أصل السن القانونية ويتم ترفيعي بعد ذلك إلى الصف التالي، وكانت زميلات والدتي يتواطأن معها عندما يأتي المفتشون من وزارة التربية "المعارف وقتئذٍ" فيخفينني حتى يغادر المفتشون المدرسة.

إلا أنني أفسدت هذا التستر عندما فوجئت ذات صباح بالمفتش يسألني وأنا أتمشى في فناء المدرسة عن صفي؟ فقلت: الأول، فأخذني من يدي إلى الأستاذة الجشي، وفحص أسناني فلم تكن لديّ 21 سنا كما يجب، وطلب مني أن أضع يدي اليمنى على أذني اليسرى كأحد شروط القبول في ذلك الوقت، ولم أنجح في هذا المعيار أيضا، وفي هذه الأثناء عرف ظروف مجيئي إلى المدرسة، فقال باستهزاء لوالدتي "إنها في الرابعة من العمر وليس السادسة، كان يجب أن تجلبي "الكاروكة" معها!".

في نهاية العام الدراسي كان أدائي يؤهلني للانتقال إلى الصف الثاني، فنقلتُ مع اشتراط متجدد لاستبقائي في الصف إذا لم أواكب أداء الطالبات .. وهكذا كل عام حتى تخرجت من الثانوية العامة وعمري 15 عاما.

بعد ذلك تمنيت دائما لو كان هذا المفتش صارما مع والدتي، فقد ظلت صفة "أصغر طالبة" تلاحقني في كل مراحلي الدراسية، ولم يشفع لي العام الذي أضافه والدي إلى عمري وهو يستصدر لي جواز السفر في محاولة لتعديل عدم مواكبة عمري لمراحلي الدراسية.

وظل هذا العام الإضافي في جواز السفر مصدر سعادتي أسابق به الزمن لألحق بمن يسبقنني عمرا وتكوينا وفكرا في حياتي التي أخذت صفة الاستعجال دائما، وأتساءل أحيانا عما إذا كانت قراراتي ستختلف أو أن حياتي ستتغير لو أنني استرجعت هذا العام المفقود في مرحلة ما!

صيف 1974

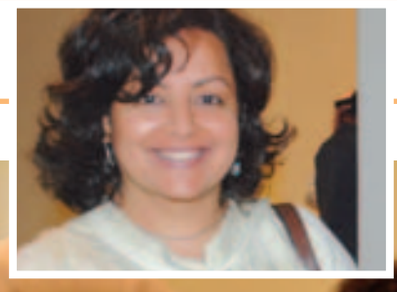

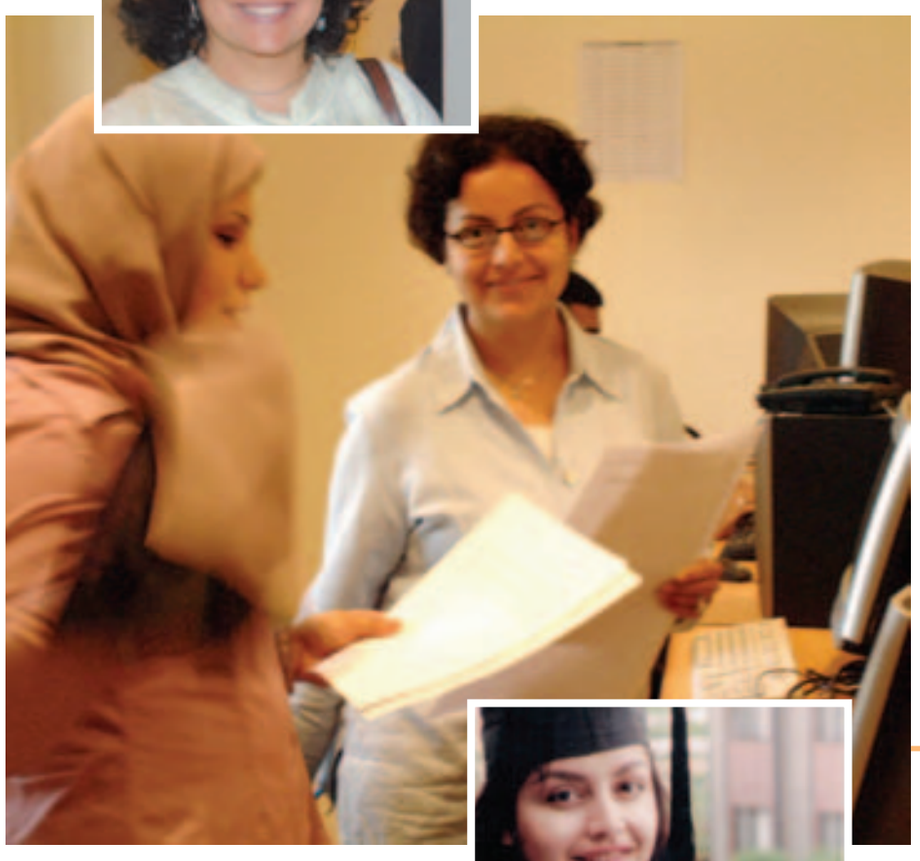

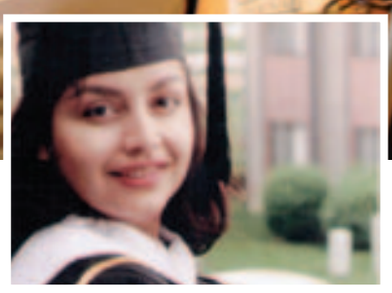

وكانت الفراشات تنشغل بمهمة أخرى
تنجزها باكرا قبل حلول الشتاء
تحوك جدرانا من حلم حول سرير طفلة غافية
وتزينه بصور كثيرة
لفارس جميل
وحصان أبيض
وأقواس قزح
■■■
على وريقات اللوز
كتبت الفراشات قدرا نديا
ووعدا أبديا
وأودعتها القبضة الصغيرة
وغادرت

لنحتفِ بخيباتنا

الخيبات في حياتنا تدفعنا دفعا إلى الغوص في أنفسنا؛ لنعرف أنه مازال هناك الكثير لنستكشفه في الوقت الذي نعتقد أننا بلغنا أقاصينا..

علينا أن نحتفيَ دائما بخيباتنا فور زوال الصدمة الأولى.

صحافيون بطعم الماء

أن تكون صحافيا فأنت كأي انسان آخر، تتشكل من مزيج من الموروث والمعتقد والفكر وأشياء كثيرة أخرى، مزيج لا يكف يتفاعل ويعيد تشكيل نفسه ويمنحك الهوية التي تعرّف بها نفسك لمن يقرؤك. تتشابه أنت مع كل الناس في طريقة التكوين، ولكنك تتميز عنهم في أن هذا المزيج الذي تشكلتَ منه يصبح مكشوفا وأنت تسكبه كل يوم في كتاباتك، ويكاد يسبق اسم عائلتك كلما وددت أن تقول اسمك كاملا، فأنت لم تختر اسم عائلتك، ولكنك بالتأكيد اخترتَ تشكيلتك الذاتية، فأنت فخور بها وبكل ما يطرأ عليها من تغيير تصنعه أنت وحدك بدقة بالغة في معملك الداخلي الخاص، فأنت تفخر بالدعوة إليها دون أن تشعر، وأنت تتحمس في طرحها وتدافع عنها كأعز ممتلكاتك.

ولكن هذه الصحف الجديدة التي تتوالى تُشعرني بصعوبة بالغة في التعرف إلى زميلات وزملاء وأنا أقرأهم في موضوعاتهم التي أصبحت تتلون بألوان الصحف التي تتقاذفهم فيما بينها. لم يعودوا ذلك التكوين الذي عرفته دائما. تشابهت الكلمات وغابت عن كتّابها الهوية وتتابعت الموضوعات أمامي كمعاملات إدارية متشابهة أنجزتْ بدقة متناهية لمهارة منجزيها، ولكن بشكل "أوتوماتيكي" كسلع أنجزتها مكائن كثيرة متشابهة في مصنع كبير ينتج سلعا لاستخدامات متعددة، ولكنها بمعايير إنتاج موحدة. بلون واحد وشكل لا يتغير، فلم أرَ الموضوعات تنبض بحماس تكوين كاتبها الذي يعلو ويخبو مع مدى انسجامه أو نفوره من الموضوع الذي بين يديه.

الصحف لم تتنافس على القرّاء فهم في غالبيتهم محددون سلفا لكل صحيفة، ولم تتنافس على الربح، فحجم الكعكعة وشكلها لا يسيل له لعاب حتى تاجر صغير. بدتْ لي الصحف وقد تنافست وراهنت على تغيير هويات الصحافيين، فهجّنتهم إلى موظفين يسعون إلى مكان الرزق الوفير، وأفقدتهم الولاء للمكان وشيئا فشيئا يفقدونه لتكوينهم، فلا يعودون يتميزون عن سائر الناس بانكشاف هذا التكوين، إذ يظهر منهم فقط ما تتطلبه الوظيفة وما يطلبه الموظّف، فأتت على تكوينهم الداخلي وسطّحتهم إلى تكوينات هلامية تتشابه فيما بينها، ولا يشبه كل صحافي نفسه.

بدا لي الصحافيون كمُركّز العصير في قاع الكأس له مذاق مميز ولذيذ عندما يخلط بالماء لأول مرة، وكلما بدّل الصحافي قبعته أضيف ماء جديد على ما تبقى من مركّز العصير، فقلّ هذا التركيز وفقد الشراب معه شيئا من مذاقه الخاص. البعض بدل صحيفته أكثر من مرة ففقد معظم مذاقه ونكهته..

أيدٍ كثيرة تناوبت على الكؤوس وخففت النكهة والمذاق منها .. ولم يتبق فيها سوى طعم الماء.

الملف الأسود

اكتشفت في أولى محطاتي الصحافية أن النفور الكيميائي الشديد بيني وبين مسؤولي كان كفيلا لأن يجعله لا يدخر جهدا لكي يعرقل خطواتي المبتدئة.

وعندما يتصاحب النفور الكيميائي مع سلطة ونفوذ يصبح الويل للطرف الأقل سلطة، وهو أنا الصحافية التي تجاوزت للتو لقب مبتدئة وشعرت بلذة الانتشار في الكتابة للصحافة الإقليمية وتكوين الزمالات متعددة الجنسيات. قبلت التحدي وقبلت أن أكون طرفا في لعبة "لنر من يكسب أخيراً" وتحولت العلاقة بيننا إلى حرب باردة استعذبتُ خلالها لعبة تجميع النقاط والوثائق التي تخرق الهالة المهنية المخضرمة التي أحاط بها نفسه، جمعتها بترتيب في "ملف أسود" حافظتُ عليه بمقدار حبي لعملي وبمقدار خوفي أن أفقده وأنا مازلت طرية الخبرة، وأبعدتُ كل فكرة كانت تؤنبني على هذا العمل المخابراتي الذي أقوم به في الخفاء، فكنتُ أبرر ما أفعله بأنه دفاع عن نفسي وحماية لوظيفتي سأستخدمه فقط عندما يضطرني بنفسه إلى ذلك.

كأن المعركة الباردة كانت تدور على رقعة الشطرنج، وكانت القطع تتساقط إلى غير صالحي، حتى جاء الوقت الذي أصبح فيه الملك في ساحتي "ساقط" لا محالة، فقلت إلى نفسي إنه وقت "الملف الأسود".

ولكن "الملف الأسود" لم ينقذني من مشاعر الهزيمة البائسة التي سيطرت عليّ، فكنتُ قد تعلقتُ بالمكان وبالتفاصيل اليومية، ولم يكن فضح محتويات "الملف الأسود" ليردّ لي شيئا مما أنا موشكة على فقده.

فجأة بهتت الألوان ولم يعد "الفايل الأسود" ورقة ثمينة في يدي وأنا أمسك استقالتي بيدي الأخرى.

وبهت كذلك حماسي للانتقام من هذا الذي دفعني إلى خارج المكان، وحل محله شعور جارف بأنني لم أعد أنتمي إلى ذلك المكان.

كنت بحاجة فقط لأن أسمع من يقول لي "أن لا أفعل"؛ لأنها تطابق ما أريد أن أفعله في تلك اللحظة، فخطوتي قد سبقتني إلى الخارج.

ساعدني زميل كان قد دخل دائرة علاقاتي القريبة لأضع النقطة الأخيرة في "الملف الأسود".

أودعتُ استقالتي خيبة التجربة الأولى، طويتُ معها أيام البداية الجميلة، ورميتُ "الملف الأسود" وخرجت. كانت الشمس مشرقة وكان الطريق أكثر رحابة مما توقعت.

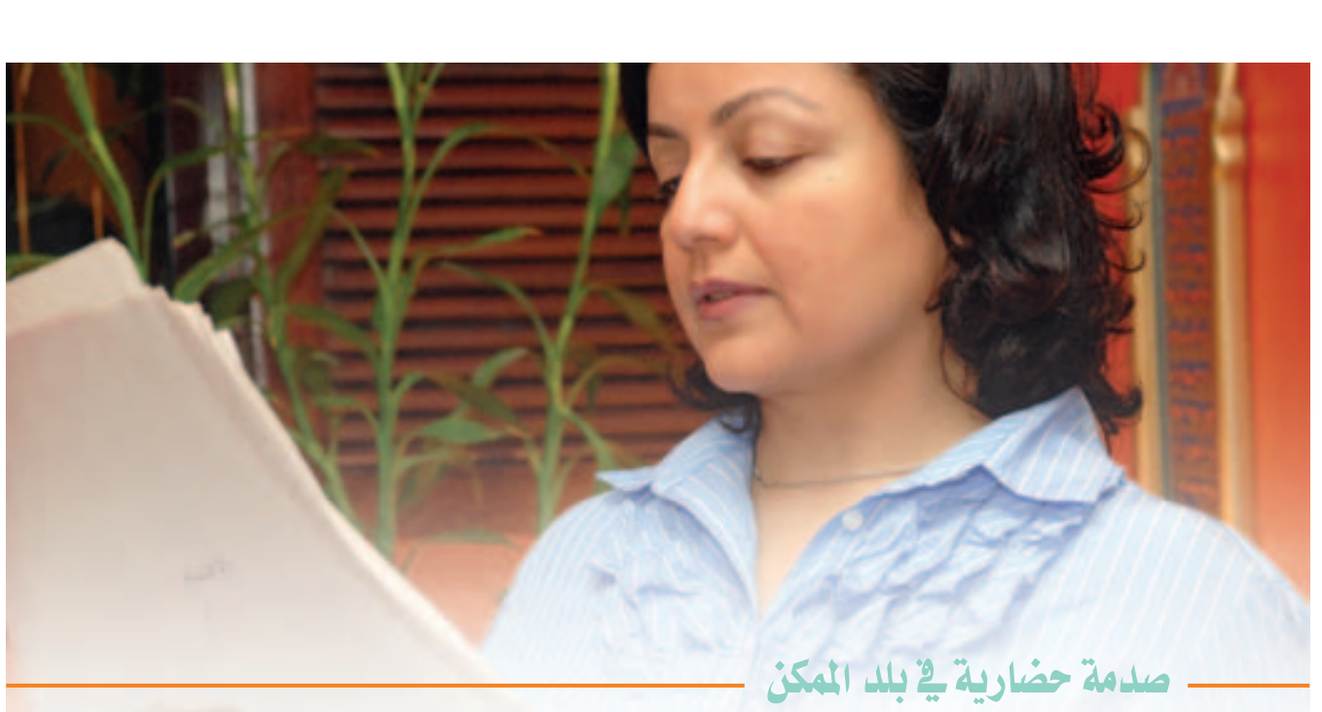

صدمة حضارية في بلد الممكن

في منتصف 1985 كنتُ أجلسُ مع خليط من الطلبة الجدد القادمين إلى جامعة أوهايو الأميركية، من عرب وآسيويين وأميركان لاتينيين وآخرين، نستمع إلى مسؤولة الطلبة الأجانب، مسز فراي، وهي تشرح لنا ما تضمنته رزمة من الأوراق المطبوعة، والتي تتناول كل ما يخطر على بال الطالب الأجنبي القادم إلى أميركا للمرة الأولى في زمن ما قبل الإنترنت.

وبلطف كبير وخبرة واضحة تبدو صُقلت بحكم موقعها الذي تقابل فيه القادمين الجدد من مختلف دول العالم، قالت لنا مسز فراي بلطف عن الشعب الأميركي، وعن المجتمع المتنوع، وعن الأكل الأميركي وأشياء كثيرة.. ثبت منها في ذاكرتي ما قالته عن الصدمة الحضارية التي سنتعرض لها كلنا بدرجة ما.

فقالتْ إن الأسباب التي ستؤدي "إلى إصابتنا" بالصدمة الحضارية تتعدد، فنحن سنعيشُ تفاصيل يومية كثيرة مختلفة عن تلك التي نعيشها في دولنا، وحذرتنا من أن الصدمة الحضارية قد تكون شديدة وقد تؤدي بنا إلى الانهيار إن لم نتعاطَ معها بوعي ونحاول أن نؤقلم أنفسنا على الوضع الجديد، فكل شيء جديد وغير مألوف، الوجوه، اللغة، المعاملة، المباني، الطقس حتى الشجر والأزهار الجميلة ومنظر السناجب والفراشات حذرتنا منها مسز فراي! وبرغم دهشتي، فقد شرعتُ في انتظار تلك الصدمة الآتية لا محالة، وأراقبُ تفاصيل يومي وأبحث عما يمكن أن أشعر معه ببوادر الصدمة، فلم أشعر بها وأنا أقف في طوابير الانتظار التي تحترم من يأتي أولاً سواء أكان في البنك، أو في "سوبر ماركت"، في لقاء عميد الجامعة، أو في انتظار فرصة عمل جزئي للطلبة، فلا أحد مُفضل على أحد..

ولم أشعر بها وعيناي تتسع دهشة لرؤية ممثلين لجمعية المثليين يقفون مع ممثلي الجمعيات الكثيرة، رافعين عرائض تطالب بتغيير قانون في الجامعة، فحالة احترام الآخر طغت على حكمي الراسخ في داخلي على هذه الفئة من المجتمع.

وكيف تصيبني صدمة وأنا أرى الطلاب من مختلف الأعراق يتنافسون بعدل لرئاسة لجنة مهمة في الكليّة! واعتادت عيني سريعا على منظر الطلاب يرتدون الجينز والأحذية الرياضية، وأنا التي اعتدتُ في جامعتي الخليجية على رؤية الطالبات يذهبن إلى الجامعة بفساتين السهرة والأحذية العالية، وبالكاد يتحركن حتى يصلن إلى صفوفهن.. ولم أرَ أستاذا يحابي طالبا أو طالبة؛ لأنه ابن فلان.

وشيئا فشيئا، بدأت المشاهدات والأحداث اليومية داخل الجامعة وخارجها تباعد بيني وبين تلك الصدمة الحضارية التي كنتُ انتظرها.

وكان المنغّص الوحيد طوال هذه السنوات هو شوقي لعائلتي ولأجواء المناسبات، ولم يكن ذلك من بين الأسباب التي تؤدي إلى أية صدمات حضارية!

انقضت السنوات الست، وانشغلنا بالعودة، وكنا، زوجي وأنا، نستصدر شهادة ميلاد ابنتنا الثانية عندما تجاذبنا أطراف الحديث مع موظف هناك، فقال لنا وهو يسلمنا الشهادة " كل شيء على ما يرام بإمكانكم الآن استصدار جواز لابنتكم فبإمكانها أن تصبح رئيس الولايات المتحدة الأميركية يوما ما .. أميركا بلد الممكن .. كل شيء .. كل شيء قابل للتحقق على هذه الأرض".

المفاجأة أنني ما أن عدتُ إلى بلدي بعد ست سنوات، يسبقني شوق كبير، حتى بدأت الإحباطات تتوالى، فمقابلات العمل كنتُ أسالُ فيها عن أصلي وفصلي وهواياتي قبل الشهادة والخبرة.

الطوابير هي اختراع لتنظيم انتظار الناس "العاديين" الذين من الممكن أن يتعطلوا لقادم "معروف"؛ حتى ينجز معاملته.

الإحباطات أخذت تتوالى..

هنا، أصابتني "صدمة حضارية عكسية" لم أشفِ منها حتى بعد مرور ما يقارب العقدين من الزمان. ولولا أن زميلا أحزنني بخبر وفاتها قبل عودتي، لكتبتُ خطابا إلى مسز فراي أرجوها أن تدعوَ طلابها الجدد من دولنا "النامية أبدا" إلى أن يستمتعوا قدر إمكانهم، فالصدمة الحضارية تنتظرهم هناك لا محالة لحظة عودتهم إلى بلدانهم.

انتظار

يزهر العمر بلحظات الانتظار..
لا يهم أن تأتي
أو لا تأتي
فغيابك كالحضور
بل وأبهى
■■■
في الغياب
تتفتح الذاكرة كجوري الربيع
تتفيأ بتفاصيل كثيرة
بحديث لم يدر
وبنظرة لم تقل كل الكلام
بأزمان الصمت الحبلى بالضجيج
بالشغف
بالحكايات
بانتظار ما لم يأتِ
ولن يأتيَ
بقيد من حرير
.. ونار
وباقتراب لا يكف ينمو
ولا يضنيه توالد المسافات
■■■
عند الحضور تزدان السماء بملايين النجمات
تسكب ذهبا في جنبات الكون
ويتوهج العمر
وأيّ وهج
■■■
وحارس يرقب الزمن
يمنح اللحظة بحساب
ويعلن الحضور عتبة لغياب جديد
■■■
أوليس الانتظار أجمل من الحضور!